إشكاليات دراما الطفل

أ. مجدي مرعي

كاتب أدب الأطفال

تعد قضية دراما الطفل قضية حيوية ينبغى عدم التهاون فيها أو التغاضي عنها؛ لأنها الرافد الأساسي الذي سيغذي المسرح مستقبلًا بجمهوره الواعي وفنانيه القادرين على حمل عبئه، ودفع تطوره في خطًى ثابتة، وأنه لا يجب الاهتمام بدراما الكبار وإغفال دراما الأطفال، وإلا كنا كمن يحرث في أرض بوار، نهتم بسطحها ونترك أعماقها التي تضم الجذور وترعاها لتخرجها فيما بعد ثمرًا، وتكون النتيجة جدبًا لا ينتج ولا يثمر، ثم إن دراما الطفل الآّن صارت جزءًا من العملية التعليمية والتربوية التي يقوم بها المجتمع لتقويم صغاره وتنشئتهم وفق قيم ومبادىء محدودة ومتفق عليها، وهو في النهاية وسيلة مهمة تساعد على تطور المجتمع.

والأمر هنا يقودنا إلى السؤال: كيف نقيم على أسس علمية مسرحًا للطفل؟ .. نقول: إن ذلك يتحدد بأربع خطوات، هي:

أولاً ـ التخطيط: ويقصد بها وضع الخطوط العريضة التي يسير عليها المسرح، والتي لا بد من توافقها مع القيم التربوية المتفق عليها مسبقًا، فمن المعروف أن المثلث الإنساني يتكون من: العقل، والبدن، والوجدان؛ لذلك يجب أن يضع المخططون في حسبانهم تنمية العقل ليكون سليمًا، وتنشئة البدن القوى بتشجيع الأطفال على الحركة ونبذ الكسل والخمول، ثم ترقية المشاعر والوجدان عن طريق الترفيه والتسلية، ويمكنا في هذا الصدد أن نعتبر الترفيه هدفًا وليس كما يتصوره البعض مضيعة للوقت والتخطيط، ومن هنا يجب أن يتولاه التربويون وعلماء النفس والمتخصصون في المسرح، ولا نترك للمبادرات الفردية أن يكون لها الفرصة في ذلك، فمهما حسنت النوايا فهي معرضة للخطأ الذي يؤدى إلى آثار سلبية.

ثانيًا ـ التنفيذ: ويقصد به الخطوات العلمية التي تترجم الخطوط العريضة للخطة، والتي تشمل تفاصيل تتضمنها العروض المسرحية المقدمة للطفل، وإذا لم يشد الحدث انتباه الأطفال فإنهم سينشغلون فيما بينهم إما بالحوارات الجانبية، أو بتبادل الأيدي؛ وبالتالي يصبح من صعب السيطرة عليهم، ومن ثم يجب الإشارة إلى الشكل والمضمون، وهما وجها العملة للعملية الدرامية.

- **الشكل:** فبعد تنفيذ الخطة ومسرحتها نأتي إلى الشكل، فيجب أن يراعى فيه ما يأتي:

- بالنسبة للغة المستخدمة لا بد وأن تحمل جرسًا محببًا للطفل، وتُصاغ ببساطة، بعيدة عن التغريب وبعيدة عن المفردات التي أدخلت حديثًا إلى عالمنا، وبلغة يفهمها بدون ضجر.
- أن يمتزج الحوار بالحركة، فالحوار بمفرده يبعث على الملل إذا استغرق فترة زمنية طويلة، ويبقى الخيار الأفضل هو أن يمتزج الاثنان معًا ويتوافقا.
- أن تزيد الأحداث، ويقل الحوار؛ حتى تصبح الحركة مبررة وليست مفرغة من المعنى، فكلما كانت الحركة مرتبطة بحدث تقل أو تنعدم نسبة الملل الذي يمكن أن يتسلل إلى الصغير، وذلك حتى ينشغل طوال الوقت في متابعة الحدث ومساره حتى يصل إلى نهايته.

ومن الأمور التي تلعب دورًا بارزًا في دراما الطفل التي تترجم إلى عمل مسرحي هي:

أ. الأداء: فالأداء السليم المؤدي في سلاسة وتلقائية يلقى استحسانًا من الأطفال وينال إعجابهم، وقد لوحظ أن المبالغة الكوميدية في حركة الممثل تفجر طاقة الضحك لديهم.

ب. الديكور: كلما كان بسيطًا في تكويناته وغير معقد، ومشوق بألوانه الجذابة، ويتحقق فيه عنصر الإبهار، يشيع في الطفل جو من البهجة، ويحمله على الشعور بالسعادة طيلة فترة العرض، ويجب أن يتحقق نفس الشيء بالنسبة للملابس بألوانها وتناسقها وتناغمها مع الديكور، وإضافة لذلك فإن الألوان الداكنة إن لم يكن لها مبرر درامي ستحمل الطفل إلى عدم الراحة.

ج. الإضاءة: وهي تلعب دورًا رئيسًا في إبراز جماليات الديكور والملابس، ويجب التقليل بقدر الإمكان من مشاهد الإظلام الكامل التي يلجأ إليها المخرجون كحيلة لتغيير الديكور؛ فالظلام الدامس بالنسبة للطفل يثير بداخله الرعب؛ لذلك يفضل استخدام وسائل أخرى كدخول الديكور من الكواليس، أو من أعلى، أو صعودها من أسفل، الأمر الذي يجعل الطفل يشعر بالانبهار.

د. المضمون: تظل قواعد الدراما المعروفة هي القاسم المشترك بين دراما الكبار ودراما الطفل، وإن اختلفت عند دراما الطفل التي نجدها تتميز ببساطة الحبكة، وعدم اللجوء إلى التعقيد كالإفراط في مشاهد flash back

أو الخطوط الدرامية المتقاطعة، والتي تحتاج إلى تركيز شديد، وهي أمور أكبر من أن يستوعبها الطفل، فإذا تسلسلت الأحداث في سرد رتيب فقدت جاذبيتها للطفل، وإذا تحولت الأحداث إلى صراع يجعله أكثر إثارة وتشويقًا، وهنا تلعب اللغة مع الحركة والأداء أكبر الأثر في انحياز الأطفال إلى إحدى جانبي الصراع، شريطة ألا يقدم الشر في صورة محببة تدعو الأطفال إلى تقليدها، وعلى ذلك يكون هو هذا المضمون الذي نحرص عليه. فمسرح الطفل هو خلق الأحداث التي تربط بين مفهوم التربية ومفهوم القدوة دون مواعظ مباشرة، والابتعاد عن المباشرة، والتبسيط هنا لا يعنى السذاجة في عرض الأحداث وتشابكها، الأمر الذي يجعلها غير منطقية، ولن تثير في الطفل سوى الاستخفاف وعدم الاقتناع بما يقدم، وهذا خطأ يقع فيه كتاب دراما الطفل حين يتصورون أنه بتبسيط الدراما يمكن أن يصل بالعمل سريعًا الى عقل ووجدان الطفل.

ثالثًا ـ المتابعة: وهي عملية تتم طوال مراحل التنفيذ إلى أن يكتمل ويصبح عرضًا مسرحيًا يشاهده الأطفال، والمتابعة يقصد بها مطابقة الخطة مع ما يجري تنفيذه، ورصد العقبات الطارئة، والبحث عن حلول لها، والسلبيات التي ظهرت والتي ربما تحتاج الى تعديلات في الخطة، وتقسيم العمل إلى مراحل وخطوات، لا يعني ذلك الجمود بل هي من المرونة بما يسمح بالنظر فيها على ضوء معطيات الواقع.

رابعًا ـ التقييم: ويتم ذلك بقياس رأى المشاهدين لتحديد مدى استجابتهم للعمل، وما إذا كانت القيم المستهدفة في الخطة قد تحققت أم لا، وهنا الأمر يختلف تمامًا، ففي مسرح الكبار يحرص المشاهدون للعمل الفني على الاعتبارات الإنسانية من مجاملة للعاملين فيه خشية إحباطهم وتأثر علاقاتهم بهم، أما جمهور المشاهدين من الأطفال فالأمر يختلف تمامًا؛ لأنهم مازالوا في سن التطهر الذي لم يلوَّث بعد.

ولتقييم مسرحية الطفل هناك عدة أساليب:

- تسجيل رد فعل الأطفال أثناء العرض لمعرفة أكثر المناطق التي نالت إعجابهم.
- إدارة حوار مع الأطفال بعد انتهاء العرض؛ لمعرفة انطباعهم عن العمل ككل، ثم عن تفاصيله.

- تصميم استمارة تحتوي أسئلة بسيطة، ويُطلَب من الأطفال الاجابة عليها، وتشمل الاستمارة تفاصيل العمل، سواء من ناحية النص ومضمونه أو من ناحية الشكل.

وعملية التقييم هذه ستمكننا من تحديد مسار هذا المسرح، ومدى تحقيق أهدافه، وإذا سار المسرح وفقًا للخطوات السابقة، سيحقق حتمًا كل ما هو مرجو منه.

وإنه ثمة نقطة أخيرة وهي أن هذا مسرح الطفل لا يتسلط عليه الأضواء مثل مسرح الكبار، وأن العاملين فيه لا ينالون نفس شهرة مسرح الكبار.

إضافة إلى ذلك تدني الميزانيات المرصودة له، وأن المجتمع ما زال تحكمه النظرة الفوقية للأطفال، وسيظل العاملون في مسرح الطفل وكتَّاب دراما الطفل أشبه أو أقرب إلى أصحاب الرسالات، ويكفي أن فنانيه صنعوا الضحكة والابتسامة للطفل، وكلنا أمل في أن يحظى هذا المسرح بنفس الاهتمام الذي يحظى به مسرح الكبار، وبنفس الاهتمام الذي يوليه النقاد لمسرح الكبار، ورصد الإمكانيات المناسبة من ميزانيات ودور عرض وتحريك للعروض في كافة بقاع الوطن، ليشاهده كل الأطفال؛ ليحدث الحراك المطلوب والهدف الأسمى.